

فكاهات

الحكمة السرية

كان في مدينة باريز بين قضاة محكمة العليا فتى يسمى راعول لم يبلغ الثلاثين عاماً من سنه ربه والداه احسن تربية ولقناه مجمل العلوم . وكان منذ طفولته تظهر على وجهه الجميل علامات الخلق والذكاء وتوقد الخاطر فاذا وجد بين رفقائه من الغلمان ادرك الناظر لاول وهلة انه لا يختلط معهم في العابهم الصبانية بل يوجه افكاره الى غايات اسمى وخواطر ارفع . ورأى والداه ذلك فتيقنا ان لولدها مستقبلاً حسناً في بلاد لا تجهل قيمة افرادها وكانا من المثرين فلم يدخرا وسعاً في الاتفاق عليه وتسهيل السبل له لنيل العلوم والمعارف . وبعد ما خرج من المدرسة وهو في الثامنة عشرة من العمر اصيب في والديه فتوفي ابوه اولاً وبعد اسبوع توفيت والدته ايضاً فبقي وحيداً لا اهل له ولا معين . غير انه تلقى هذه الصواعق المحرقة بصدر رحب ورزاة عجيبة فما انقضت مدة حزنه حتى عمد الى املك ابيه وثروته الطائلة فوسع املاكه واصحها واقام العمال الامناء ولبث ساهراً على اعماله وعماله بغاية التيقظ والانتباه

وكان راعول قد اتبع فن المحاماة فنبغ فيه وطار صيته في اقطار فرنسا وبعد حين انتدبه الحكومة فعيّنه قاضياً في المحكمة العليا . وما عثم ان رأى اختلالاً في بعض اعمالها فتقح دستورها وضبط قوانينها وعمد الى اصلاحات جدية رأى الجميع اصابة رأيه فيها فوافقوه على اثباتها . وما بلغ الثلاثين من عمره حتى انتخب رئيساً لنفس المحكمة مع ان اكثر القضاة المؤلفة منهم كانوا اكبر منه سنّاً الا انه كان اوفرهم ذكاءً واوسعهم علماً

وكان راعول من اصدق الناس نظراً في الامور واكثرهم تثباً في الاحكام فكان اذا القيت اليه مسئلة يتلبث قليلاً قبل ابداء رأيه فيها حتى يحيط بجميع وجوهها فاذا نطق بحكمه لم يمكن ان يرجع فيه ولم يكن ذلك عن تصلب في رأيه بل لان حكمه كان من اول وهلة يصيب كبد الصواب . وهكذا ثبت راعول في مركزه لا يهاب شيئاً ولا يخاف ان يقهره احد سوى عدو واحد هاجمه بقتة فاخترق صفحات صدره الفولاذية واستولى على حصن قلبه فاستقر فيه وهذا العدو هو الحب . فان راعول كان قد رأى يوماً ابنة احد الاعيان في مجتمع فاعجبه جمال وجهها واعتدال قوامها ولم يحتج راعول الى اكثر من ذلك الوقت لانتقاد سلوكها وآدابها ومعارفها فوجدها لا تبارى بين بنات جنسها فمال بكليته اليها وشعرت الفتاة بميله وكان عندها اضعاف ذلك مما لم يخف على راعول ففاتحها بما في نفسه ولم تمض ايام كثيرة حتى خطب الفتاة ودعا عدداً من اصدقائه فقصوا ليلة من اصفى ليالي الدهر دام فيها تعاطي كؤوس المسرات والمخاصرة الى الصباح

ولم تؤثر حالة راعول الحية في واجباته القضائية فكان اذا عمد الى عمله ينسى الحب والحبيبة ويشمر عن ساعد الحزم والعمل فاذا فرغ من شغل نهاره عاد الى مراجعة التقارير الواردة اليه عن اشغاله الخصوصية ثم يقضي شيئاً من الوقت في الزهة وترويح النفس وفي النهاية يزور خطيبته فيطرحها الغرام والشوق كأنه عابد وله

وبعد خطبة راعول بنحو شهرين كان عيد الميلاد المجيد فدُعي الى مأدبة اقامها اهل خطيبته في منتصف تلك الليلة وهي عادة شائعة يتوارد المدعوون فيها الى محل الدعوة قبل نصف الليل يوضع دقائق حتى اذا تكامل عدد المدعوين وازفت الساعة الثانية عشرة قام الجميع يهتفون بعضهم بعضاً ثم دخلوا الى غرفة المأدبة يفتحون سننهم بالمسرات . وفي صباح ذلك اليوم نهض راعول وكانت لديه اشغال كثيرة اثر القيام بها على كل شيء فصرف نهاره في العمل ولم يفرغ الا في الساعة الثامنة مساءً . فارتدى فوق ثيابه جبة تقيه برد الليل وخرج قاصداً بيت

خطيته فاستقبله خادمه وعرض عليه ان يطلب له عربة تقله فاعاد نظره في
ساعته وقال لا يزال امامي اكثر من ثلاث ساعات وانا اوشر المشي لاروض جسمي
بعد جلوسي طول النهار ثم التفت بعباءته وضغط قبعته فوق رأسه وسار
واجتاز راعول الشارع الاول الكبير ثم عطف الى شارع اصغر منه قد وضعت
فيه مصابيح بعيدة بعضها عن بعض وكان الضباب يستر نور المصابيح ثم همى الغيث
واقفر الشارع فنظر راعول لعله يجد عربة يناديه ولكن لم يجد في كل الشارع سواه
فصوب خطواته وجد في المسير . وما بلغ منتصف الشارع حتى سمع وقع اقدام
منسرة وراءه ثم ادركته فبين ثلاثة اشخاص فنظر لعله يرى مع احدهم مظلة
يستتر بها معهم ولكنه قبل ان يفتحهم بجديت هجم الثلاثة عليه و باسرع من البرق
امسك اثنان بذراعيه وادخل الثالث في فيه منديلاً بطريقة غريبة تمنعه عن
الكلام او ابداء اقل صوت وهمس احدهم في اذنه ان اتبعنا صامتاً مطيعاً واعلم انه
عند اقل حركة مقاومة تبدو منك نتركك في هذا الظلام الخالك جثة باردة .
ورأى راعول ان الصمت والالتقياد اجدر به فسار بين الثلاثة كالنعجة الى الذبح .
وبعد ما ساروا قليلاً قال احدهم اسمع لنا يا حضرة القاضي ان نعصب عينيك فانك
تعلم بدون شك اننا لا نريد ان نعرف الى اين نحن سائرون . ولما قال هذا اخرج
من جيبيه منديلاً اسود عصّب به عيني راعول ومضوا في طريقهم صامتين . وما
زالوا كذلك وهم يذهبون تارة شمالاً وتارة ميماً حتى وقفوا امام باب فاعطى زعيمهم
اشارة سرية ففتح الباب ولما دخلوا تحلف اثنان منهم واقتاد الزعيم راعول بيمينه
فصعد به سلماً عد راعول درجاته لانه مع ما هو فيه لم يفارقة تيقظه فعمد الى
التقاط كل اشارة او حركة تبدو له لعلها تنفعه في المستقبل . ثم دخل به الى غرفة
فاجلس الزعيم راعول على كرسي وقال له لا بد انك استغربت عملنا هذا يا حضرة
القاضي ويحق لك الاستغراب ولكنني اخبرك الآن اننا لسنا من اللصوص او القتلة
كما لعلك توهمت فانك الآن في بيت من اشرف بيوت الفرنسيين وقد احضرناك
جبراً لعلنا اننا لو دعوناك طوعاً لما اتيت ولا سيما لاننا لا نريد ان تعلم من نحن

الضياء

(٢٨٣)

اما الغرض من احضارك فهو خدمةٌ تطلب قضاءها منك ربة المنزل وستتولوها هي عليك وبعد ذلك فحياتك او موتك رهن ارادتك انت . واني سارفع العصاةة عن عينيك الآن وانزع المنديل من فيك فايالك اذا بقيت حيًّا ان تذكر ما ترى واياك ان يصدر منك صوت استغاثة فانه لا منزل بجوارنا الى مسافة نصف ميل . وزد على ذلك ان في المنزل من خدم ربه عددًا ليس بقليل من شرسي الاخلاق اذا سمعوا نداءك ربما اوقعوا بك قبل صدور الحكم عليك

ولما انهى الرجل كلامه رفع العصاةة عن عيني راعول ونزع المنديل من فيه فرأى راعول نفسه في ظلمة حالكة السواد لا يقدر ان يرى فيها شيئاً ثم لمس الزعيم زراً كهر بآئياً فاضاء المكان ضوءاً خفيفاً جداً تمكن راعول بعده ان يشاهد الغرفة فراها ردهةً فسيحة جداً قد دُهنّت جدرانها وسقفها واراضها بلون احمر مشبع وكانت خالية من كل مفروش او اثاث ما خلا الكرسي الجالس عليه وثلاث كراسيٍ اخر على صفٍ واحد امامه . وبينما هو غارق في تأملاته وتصوراتهِ وما طرأ عليه في تلك الليلة وماذا يطرأ على خطيبته اذا حلّ نصف الليل ولم يحضر اذا باب سرّي قد فُتح في الحائط ودخلت منه فتاةٌ ورجلٌ يشبه الزعيم الاول في ضخامة بنيتهِ وتركيب جسمهِ . وتمكن راعول مع ضعف النور ان يراقب الفتاة فرأى قامَةً كالخيزران وعنقاً كعنق الغزال ويدين يعجز امهر النقاشين عن تكوين مثلها من الجبس الابيض . اما وجهها فكان يستره برقع من الحرير الاحمر فيه ثقبان تظهور منهما عينان ولا عيون المهى . فجلست الفتاة على كرسيٍّ وجلس الزعيمان عن يمينها وشمالها ثم خاطبت راعول بصوت له رنةٌ ارعشت قلبه الذي لم يعرف الخوف قبلاً وشعر لأول مرة في حياته انه في موقف مرهب عظيم . فقالت الفتاة انزع من فكرك يا حضرة القاضي راعول كل وجل وتأكد اننا لا نريد بك سوءاً البتة ولا نتجاسر على قتلك ما لم ترد انت ذلك

فقال راعول مبتسماً اوكد لك يا حضرة السيدة انني لا اريد الموت الآن فاذا انا في امان

قالت وعلى الخصوص ان خطيتك في انتظارك قبل نصف الليل فعليك
 بانجاز الخدمة التي استقدمناك لاجلها عاجلاً كي لا تتأخر عنها
 فنظر راعول نظر المتعجب وقال في نفسه يظهر ان القوم مطلعون على كل
 احوالي فما هي يا ترى الخدمة التي يريدون مني القيام بها . وامت الفتاة حديثها
 فقالت تذكر يا حضرة القاضي انك صدقت من بضعة ايام على تنفيذ حكم الاعدام
 شتقاً في شخص يدعى بول جارفيه المتهم بقتل ثلاثة اشخاص في ليلة ١٣ نوفمبر .
 فاعلم اذا ان هذا الرجل بريء من التهمة المذكورة براءتك انت منها وان كانت
 جميع قرائن الاحوال تدل على انه هو الفاعل . ولدي براهين دامغة وحجج قوية
 تثبت براءة الرجل وشطط القضاة في الحكم عليه ولكنني لا استطيع ذكرها سرّاً
 ولا جهراً صيانة لمصلحة وعرض من يهمهم الامر . غير اني لا اريد ان يقتل
 الرجل ظلماً وقد رهنه شرفي ووعدته انه لا يقتل . ولما كنت انت رئيس قضاة
 المحكمة العليا ولا مردّ لاحكامك فقد بثت عليك العيون من يوم صدور الحكم
 لاستحضارك الينا وانا اقسم لك بالشرف العظيم وبالاله العارف بكل شيء ان
 الرجل بريء ولا يجب ان يُعدم فصدق كلامي واذ ذاك يساعدك ضميرك على الغاء
 الحكم ودع رجال النيابة والشحنة يبحثون عن القاتل الحقيقي
 قال راعول هذا طلب المستحيل ايها السيدة فان لنا قوانين لا يسعنا الا اتباعها
 ولا يكفي كلامي بدون البرهان لالغاء حكم قد قررته المحاكم ووافقت عليه المحكمة
 العليا . اما اذا كانت الحقيقة كما تقولين فلا اسهل من المعارضة قبل انفاذ الحكم
 وتقديم البراهين التي تدحض التهمة واذ ذاك فتكونين قد قتت بوعدك وخلصت
 الرجل وبغير ذلك لا يمكن البتة الغاء الحكم . قالت انا اعلم كل ذلك ولكنني قلت
 لك ان هذا لا يمكن ايضاً ولا بد من ان تفعل كما توسلت اليك فمن كان نظيرك
 رجل فرنسا الوحيد في هذه الايام لا يصعب عليه ان يلغي حكماً بعد اقتناعه ببراءة
 المتهم ولو كانت البراهين ضده
 قال قد قلت لك ان هذا مستحيل ولا يمكن ان اقوم به . قالت اما انا فقد

وعدت الرجل المسكين بعد وعدي الاول انه اذا لم النجح وفذ فيه الحكم فما يجري عليه ساجريه انا في محكمتي هذه عليك يا من واقفت على اعدام البري . ولم تستجب لصراخ الحق . ثم تغيرت نغمة صوتها فجاءة وقالت يا راعول اما انت تحلف لي الآن بشرفك وتعديني كتابة انك تلغي الحكم وتخلص السجين من عذاب الشنق وتخضع لامري هذا مذ الساعة واما ان تسجن هنا كما هو مسجون هناك الى اليوم المعين فيينا هو يدخل رأسه في جبل المشقة تكون جبال مشقتي ملتفة على عنقك وتسقط جثثا كما في دقيقة واحدة . اني انتظر جوابك الآن فافتكر مليا وجاوبني نهائيا

وادرك راعول عظم الخطر وقرأ في صوت الفتاة التصميم التام فعلم ان مناص الا بجرق الشريعة الفرنسية وخرق شرفه معها او الموت . ومرت امامه في تلك الدقائق الهائلة تذكارات شتى وانبسطت امامه اشغاله الكثيرة وتعلقاته الشخصية ثم املاكه الواسعة وغناه الوافر وانه ان مات فليس من يستولي على مقتنياته اذ لا وارث له ولا وكيل . ثم تجلت امام بصره صورة خطيته وانها بانتظاره في تلك الليلة وماذا يؤثر عليها خبر اختفائه في اليوم الثاني وكيف يفارق الدنيا وهو لم يقطع اول زهرة من شجرة الحب التي غرس اصولها الى غير ذلك من التصورات التي يعجز القلم عن وصفها . فاستغرق تأمله بضع دقائق ساد فيها السكوت العميق وكانت الالوان الحمراء في ذلك النور الضعيف تزيد المكاب رهبة . ثم مرت سحابة مظلمة امام عيني راعول وتمثل في نفسه انه اذا اتقاد لارادة هذه السيدة المجهولة فقد مركزه واضاع شرفه بجرق قانون بلاده وهو الذي عدله فما خطرت له هذه الافكار حتى رفع بصره الى الجالسين وصاح بصوت تقطعه الانفعالات النفسانية وقال الموت ولا العار . كلا . لن اخضع لامرك ايها الحاكم المطلقة التصرف في مملكتها هذه السوداء . واني متحقق قيامك بوعيدك فاذا كنت كما تدعين من اشراف الفرنسيين ويسهل عليك ان تري اكبر قضاة بلاده ينقض القانون العام فلا ادري اين يكون شرفك اذ ذاك . على انه اذا تمكنت

من اتحاد صوت ضميرك والتغاضي عن شرفك الى ان تفرغي من تقديي ضحية على مذبح غاياتك فاني استقبل الموت باسماً لانه يخلصني من الوجود بين اقوام هم في الظاهر من اسمى اشراف العالم ولكنهم في الباطن لا يفرقون عن قطاع الطريق ولما سمعت الفتاة ذلك نهضت ووقف الزعيان لها اجلالاً فقالت بصوت حادّ جهوري . انت الجاني على نفسك يا هذا فقد حكمت عليك ان تفعل بك كما سيفعل حكمك بذلك المسكين وسترى ان احكام محكمتي هذه ليست باقل من قوانينكم متانة ولا اصعب منها تنفيذاً . ثم نظرت الى رفيقها وقالت قد خرج الحكم من فمي فانظرا في تنفيذه

وكانت العظمة ترافق كلماتها والهيبة والجلال يرافقان مشيها حتى بلغت الحائط فانفتح لها من ذاته وتوارت عن العيان . ثم عمد الزعيان الى راعول فارجعا العصا به على عينيه واقتاده بيده فانزلاه في سلام وسارا به في دهاليز عديدة الى غرفة اخرى اوصلاه الى صدرها وصعدا به ست درجات الى دكة خشبية فاجلساه على كرسي واثق يديه الى جانبيه ورجليه الى مقدم الكرسي ورفعوا العصا ثانية فرأى راعول نفسه في غرفة اكبر من الاولى وتختلف عنها بان الوانها سوداء ورأى في سقف الغرفة فوق رأسه حبلًا منصوباً بهيئة المشقة فارتجفت اعضاؤه . وكان في الجانب الآخر من الغرفة نورٌ ضعيف ينبعث من كاس فيها قتيلة قد غمست في الزيت وكان الهواء يلعب نورها فتظهر على الحائط اشباحاً غريبة الشكل يؤلفها النور الضعيف . وبعد دقيقة دخلت الفتاة ففحصت وثاق راعول وكرسيه فحسباً مدققاً ثم تناولت الحبل المعلق فوق رأسه وادخلته في عنقه وقالت له انك الآن مثل ذلك المسكين وستبقى الى ان ينقضي اجلكما معاً وسيأتيك الطعام كما يقدمون له وفي نفس اوقاته وستتركك الآن وحدك مثله لتناجي افكارك . واعلم ان في محكمتنا رحمة أكثر مما عندكم فاذا شئت ان تغير عزمك وتفعل ما طلبت منك قبل حلول الاجل فما عليك الا ان تنادي فيسمعك الحاجب الذي خارج الباب وويلغني رسالتك والا فستبقى هكذا الى يوم انفاذ الحكم فترافق روحك روح ذلك السجين

فانكما ستموتان مما ظلاماً

ولما انتهت كلامها خرجت وتبعها الزعيان وأوصد الباب فبقى راعول في تلك الحالة التي ترك وصفها لتصور القارئ اللبيب . وساد السكوت فلم يسمع سوى ضربات قلب راعول وزفرات انفاسه المتقطعة وعاودته افكاره المختلفة وتراءت له صور عديدة لكنها لم تثبط عزيمته ولا حولت فكره عن الاستشهاد في سبيل حفظ قانون بلاده وحفظ شرفه . ولما صمم على الموت وتأكد تقريره جعل يفكر في ما عسى ان تقول خطيبته عنه وما سيكون اذا جاء اليوم الثاني ولم يعرف له خبر وزادت عليه المؤثرات من كل جهة وكأن دماغه العظيم لم يعد يقوى على الاحتمال بعد شغل النهار وحوادث الليل والافكار التي تتوارد منها الوف في الدقيقة في مثل تلك الحالة وزاد عليه صوت ساعة كبيرة في ذلك السكون التام فجعل يعد ضرباتها الى ان بلغت العاشرة فخالها رنة الحزن على شبابه وسُدِل على عينيه حجاب السكون فحذرت حواسه ونام غير النوم الطبيعي .

وافاق راعول من غيبوبته هذه على صوت فتح باب غرفته واذا بالفتاة داخلة يحفّ بها الزعيان حتى اذا بلغت الدكة وقفت امام راعول وقالت بصوت يسحر الالباب يظهر يا حضرة القاضي ان نجم التوفيق ساهرٌ على حياتك . اني كنت قد صممت على ما مرّ بيننا في هذه الليلة ولكنه بلغني في هذه الساعة ان بول جارقيه قد يؤس من الفرج وشك في صدق كلامي فانتحر . وعليه فقد صرتُ بريئة . من قسمي الذي اقسمتُ له وقد حمل باختياره عنك وعنا متاعب اخرى وارخى بموته الحجاب على ما حدث في ليلة ١٣ نوفمبر مما صار يجب نسيانه قطعياً . وعليه ولكي تتحقق انه لم يكن لي غاية اخرى فيما فعلت فساطلق سراحك حالاً بعد ان تعديني وتقسم لي بشرفك انك تنسى جميع ما مرّ امامك في هذه الليلة وان لا تذكره امام مخلوق ولا تحاول ان تبحث لتعرف شيئاً عن الاشخاص الذين وجدت بينهم . وبالاجمال كأن هذه الساعات لم تمرّ عليك في حياتك قط فهل تتعهد وتعد بذلك . قال نعم .

فأخرجت الفتاة من جيبها كتاباً مجلداً بالذهب وعلى جانبيه الشعار الفرنسي مرصعاً
بالجواهر الثمينة فقالت هوذا الكتاب المقدس اساس دينك وهوذا شعار المملكة
التي تدافع عنها وتقسم بشرفها فضع يدك عليه واتبعني في تكرار القسم الذي اتلوه
عليك واختمه بتقبيل الكتاب والشعار . ثم حلت له رباط يده وانشأت تلقنه
كلمات القسم وهو يردد لها بوقار واحترام حتى اذا فرغ قبل الكتاب وهو لا يصدق
بالجادة . فتقدم الاثنان وحالا وثاقه وانزلاه عن كرسيه فقالت له الفتاة ان خطيبتك
تنتظرك قبل نصف الليل واسوء الحظ قد اخبرناك ولم يبق لديك سوى ربع ساعة
الى الساعة الثانية عشرة ولكني قد امرت عربتي ان تقلك بمتهى السرعة الى حيث
يمكنك الوصول الى بيت خطيبتك . وقبل ان يتمكن راعول من النطق بكلمة معها
خرجت تاركة الزعيمين للاعتناء به . فامرهُ احدهما ان يعيد العصابة على عينيه ففعل
واقاداه الى العربة فاركباها وركبا بجانبه وسارت العربة بهم بسرعة حتى بلغت
ساحة عمومية فاستوقفها وانزلاه منها وامرا السائق بالرجوع ثم اكرتيا عربة اخرى
اجلسا راعول فيها وقالاه اذا سارت بك العربة فارفع العصابة واذكر القسم .
ثم فارقاه

وكانت خطيبة راعول واهله والمدعوون بانتظاره وقد استاءوا من تأخره ولا
سيما وقد ابتدأت الساعة تقرع ضرباتها فما انتهت الثانية عشرة حتى فتح الباب
ودخل راعول ولكنه كان اصفر الوجه وعلائم التهبج الشديد مرسمة عليه . غير
انه تمكن للحال من تقديم بعض الاعذار عن تأخره وقضى باقي ليلته على اتم السرور
كأن لم يكن شيء البتة

وحافظ راعول على قسمه فلم يعلم احد بما جرى الى ما بعد مماته فوجدت
زوجته تفصل الحادثة في مذكراته الخصوصية وكانت الى ذلك الحين لا تزال
تجهل السبب الذي اخره عن الحضور في ليلة عيد الميلاد

